

العنوان: الانتحار في تاريخ المغرب الوسيط

المصدر: مجلة دفاتر تاريخية

الناشر: جامعة سيدى محمد بن عبدالله - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مختبر البيليوغرافيا التحليلية والتوثيق للتراث المغاربي

المؤلف الرئيسي: بنمليح، عبدالإله

المجلد/العدد: ع 1

محكمة: نعم

التاريخ الميلادي: 2010

الشهر: خريف

الصفحات: 17 - 24

رقم MD: 513229

نوع المحتوى: بحوث ومقالات

قواعد المعلومات: HumanIndex

مواضيع: الانتحار ، المغرب، التاريخ

رابط: https://search.mandumah.com/Record/513229

الانتحار في تاريخ المغرب الوسيط

ذ. عبد الإله بنمليح

كلية الآداب، ظهر المهراز، فاس

مدير المختبر

1- مقدمات منهجية :

لا يدعي بحثنا في موضوع الانتحار في تاريخ المغرب الوسيط الإلمام بالظاهرة والإحاطة بجوانبها المختلفة، بقدر ما يسعى إلى إثارة الانتباه إليها، وطرح بذرة أولى في سبيل الكشف عنها، باعتبارها موضوعا محرما وغامضا، على الأقل في مجتمعنا الإسلامي عامة والمغربي خاصة. ودراستنا هاته لا تعدو أن تكون وقفة تأملية في بعض عمليات الانتحار التي عرفها المجتمع المغربي خلال العصر الوسيط.

فقد كتب الغربيون[1] عن الانتحار: دوافعه وظروفه وعلاجاته[2]، ولا يزالون يكتبون عنه؛ وفي المقابل لزم المسلمون وضمنهم المغاربة، قدماء ومحدثين، الصمت تجاهه. فما السر في ذلك، خاصة بالنسبة للمغاربة؟ أما سر اهتمام الغربيين بموضوع الانتحار فذلك مبحث آخر لا يدخل ضمن اهتمامات هذه الدراسة، حاليا على الأقل.

نتوخى من هذا البحث استعراض حالات انتحارية في بلاد المغرب، معتمدين في ذلك مقاربة تاريخية لسلوك تدميري ضد الحياة، ارتبط بظروف وعلل ودوافع معينة، سنعمل على إبرازها في حدود ما تسمح به الإمكانيات المصدرية المتاحة، دون أن نغفل الاستفادة من المقاربات الأخرى، سوسيولوجية وأنثروبولوجية، خاصة تلك التي رأت في الانتحار دراسة للموتى، فتساءلت عن إمكانيتها أولا؟ ووجودها ثانيا ؟ مما ألجأها إلى دراسة آثار المنتحرين الفنية من أدب ورسم وغيرهما. لكن هل خلف كل منتحر أثرا فنيا ما؟ إن اعتمادنا المقاربة التاريخية لظاهرة الانتحار ينطلق من قناعة مؤداها أن من بين المؤاخذات والانتقادات التي واجهتها المقاربات الأخرى عدم اعتمادها الأسلوب الطولي التتبعي[3]، بمعنى أنها ظلت محصورة في حالة أو حالات معينة، وحبيسة فترة قصيرة محددة ومجال جغرافي محدد.

يثير البحث في الانتحار أسئلة عديدة، سنحاول الإجابة عن بعضها، اقتناعا منا بأن طرح الأسئلة بعد أعسر من إيجاد الأجوبة، كما ذهب إلى ذلك بول فين Paul VEYNE[4]. وبهذا المعنى فإن موضوعا كالانتحار الذي يدفع إلى طرح الأسئلة، يعتبر في نظرنا موضوعا مغريا بالبحث، إلى جانب حوافز أخرى أضفت على اختيارنا طابعا راهنيا، نكتفي بتحديدها في ثلاثة حوافز :

1- العمليات الانتحارية الاستشهادية في فلسطين المحتلة، التي لم تعد حكرا على الرجل بل شملت المرأة أيضا[5].

2- أحداث 11 شتنبر 2001 الشهيرة بالولايات المتحدة الأمريكية، وتداعياتها الدولية .

3- تناقل الصحف المغربية – وبشكل شبه يومي – أخبار حالات انتحارية مغربية،[6] اتسع نطاقها فلم تعد

---

[1] تعد لائحة من كتبوا في الانتحار من الغربيين طويلة جدا، نقتصر على ذكر نماذج منها :

_ Marie-Noëlle MOREAU, Pourquoi choisis-tu la mort ? Appel aux suicidaires, Chalet, 1992.

_ Xavier POMMERAU, L'adolescence suicidaire, Ed. Dunod, Paris.

_ Yves PRIGENT, La souffrance suicidaire , EPI / DDB.

_ Kay REDFIELD- JAMISON, La tentation du néant : comprendre le suicide pour mieux le prévenir, Ed. Robert Laffont, 2000.

[2] ندعو إلى ضرورة التحفظ في القول بوحدة النظرة الغربية إلى الانتحار، فقد وجد من انتصر له مثل الفيلسوف الألماني نيتشه NIETZSCHE الذي اعتبره موتا إراديا في مقابل الموت الطبيعي، والإنسان في نظره يسعى بحرية إلى الموت الإرادي، في حين يظل ملاحقا بالموت الطبيعي الذي يتهدده باستمرار. راجع كتابه، Paris، 1968، p86 Ainsi parlait Zarathoustra وانظر أيضا عبد الرحمان بدوي، نيتشه، وكالة المطبوعات، الكويت، 1975، نقلا عن مكرم شاكر أسكندر، أدباء منتحرون، دار الراتب الجامعية، بيروت، 1992. إذ بهذا المعنى يمكن أن نتصور المعادلة التالية :في الموت الطبيعي يكون الإنسان عبدا والموت سيدا، أما في الموت الإرادي فالإنسان يصبح سيدا والموت عبدا.

[3] N. KREITMAN and M.SCREIBER, Parasuicide in young Edinburgh women, 1968-1975 , In Richard Farmer and Steven Hirsch (Eds) The Suicide Syndrom, Croom Helm, London, 1980.

نقلا عن مكرم شاكر أسكندر، م. س.، ص12.

[4] Comment on écrit l'Histoire,Ed. Seuil , Paris, 1971 , p.152.

[5]- دشنت الفتاة "وفاء إدريس" هذه العمليات، عندما قامت بتفجير نفسها في أحد شوارع يافا في نهاية شهر يناير 2002، ثم تلتها الفتاة "دارين أبو عيشة" بنت 23 سنة، في عملية حاجز القدس - تل أبيب، يوم 28 فبراير 2002، لتلحق بهما يوم الجمعة 29 مارس 2002 الفتاة " آيات محمد الأخرس " في عملية شهدتها مدينة القدس المحتلة ثم عملية القدس الغربية التي نفذتها عندليب الخليل طقاطقة يوم 12 أبريل من السنة ذاتها ....

[6]- أما بالنسبة للانتحار في أوربا، فإن له "قصة " أخرى، ففي بلجيكا مثلا هناك إحصائية حديثة جدا تفيد أن معدل الانتحار بها يصل إلى سبع حالات يوميا، ثم إن الانتحار بها هو السبب الأول في وفيات الفئة العمرية 25- 34 سنة، والسبب الثاني في الفئة العمرية 15 – 25 سنة، انظر جريدة الاتحاد الاشتراكي، الخميس 07 مارس 2002.

تشمل فئات عمرية محددة أو شرائح اجتماعية دنيا أو متوسطة، وإنما امتدت إلى رجال السلطة والنفوذ.

إن العناصر الثلاثة رغم تباعدها على عدة مستويات، فإن ما يجمع بينها هو الانتحار، وهو ما ولد لدينا الرغبة في طرق الموضوع في مجال تخصصنا وهو تاريخ المغرب الوسيط.

أما من حيث المصطلح المعتمد في هذه الدراسة، وهو الانتحار، فقد ارتأينا استعماله نظرا لشيوعه، وإن كانت المصادر الإسلامية – المغربية تستعمل مصطلحات أخرى مثل قتل النفس للدلالة على الفعل ومآله، ثم مصطلحات الذبح والتردي والشنق والخنق والطعن وحز اليد والسم باعتبارها وسائل لفعل قتل النفس. وسنقف عند هذه المصطلحات وارتباطها بعملية قتل النفس في الحالات التي استطعنا تجميعها؛ وإن كان لفظ الانتحار ليس غريبا عن المعجم العربي، سواء من الناحية اللغوية أو الاصطلاحية[1]، بل إننا عثرنا على اسم شاعر عربي يدعى سعد بن المنتحر البارقي.[2]

يواجه الباحث في موضوع الانتحار في بلاد المغرب خلال العصر الوسيط، صعوبات عديدة، على رأسها شح المادة المصدرية وندرة أخبار المنتحرين، وهو ما لا يمكن بأية حال من الأحوال تفسيره بغياب ظاهرة الانتحار في المجتمع، وذلك لسببين:

أولهما: غياب دراسات في الموضوع[3]، واعتبارنا هذه الدراسة مجرد لبنة أولى، نأمل أن تتلوها محاولات أخرى حتى نتمكن من إنجاز مسح أفقي على الأقل للظاهرة، وملاحظة مدى شيوعها في المجتمع المغربي الوسيط.

ثانيهما: إن غياب معلومات تهم الانتحار ليس مسؤولية الكتاب والمؤرخين وحدهم، بل يلتقي معهم فيها – وبنصيب أوفر- المنتحر نفسه الذي يقدم على الانتحار - في العادة - في غفلة من محيطه الأسروي، ويبقى المعول عليه حينئذ هو خبر الانتحار وشيوعه؛ وهو ما يطرح مشكلة جديدة تتمثل في وصول الخبر إلى المدون مؤرخا كان أم كاتبا. فنحن إذن أمام مستوى ثان للمسألة، انتقل من المعني بها إلى مسجلها، الذي لن يلفت اهتمامه أحد من العامة بمكوناتها المختلفة، بقدر ما يشده خبر انتحار أحد القادة أو الثوار أو الأعيان أو الأمراء ...هذا كله إذا ثبت خبر الانتحار.

لذلك كله عولنا في بداية إنجاز هذه الدراسة على مصادر يفترض فيها وجود أخبار تهم موضوع الانتحار، ونقصد بها كتب النوازل والأحكام والفقه، لكل من القاضي عياض[4] وابن رشد[5] وابن سهل[6] والإمام مالك[7] والباجي[8] والونشريسي[9] وغيرهم، فلم نعثر على إشارة تهم الانتحار، رغم تخصيص معظمهم مباحث تعنى بالدماء والحدود. ولم يكن حظنا مع كتب التراجم بأوفر منه مع كتب النوازل والأحكام، فقد حفلت بإثباتات تهم وفيات المترجم لهم وغضت الطرف عن المنتحرين منهم، وهو ما ينطبق أيضا على عقود الإرث، التي لا تتضمن أدنى إشارة إلى طبيعة الوفاة.[10] ولعل في افتقارنا إلى مصدر مهم هو السيرة الذاتية ما أفقدنا إمكانية البحث في المفكر فيه لدى العديد من الأفراد خلال مسيرتهم وما يعرض لهم خلالها من أزمات مالية واجتماعية ونفسية.

وهكذا قادنا البحث إلى مصادر أخرى عثرنا بها على إشارات مهمة شجعتنا على الاستمرار في البحث، بل وفتحت أمامنا مجالات أرحب وأوسع، يتعلق الأمر بكتب التاريخ والفتوح والجغرافيا وقصص الحب والغرام وغيرها، حاولنا- قدر جهدنا - تعزيزها بإشارات أخرى تهم الانتحار في مصر وفارس والشام وجاوة وجزر الكناري ... قصد المقارنة والاستئناس ليس إلا.

ومن بين الصعوبات الأخرى التي تواجه الباحث في موضوع الانتحار أنه يجد نفسه في مناسبات عديدة أمام حالات توحي بالانتحار لكن لا تصرح به، وإنما يفهم من بعض القرائن. ونقدم لذلك بعض الأمثلة:

مثال أول : بلغ وصف بعض المصادر لنجدة لمتونة الصنهاجية وشجاعة رجالها، درجة تدفع إلى الاحتفاظ من تلك الأوصاف بانطباع عن الانتحار. يذكر أبو عبيد

---

[1] انظر ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1997، ج 6، صص 151- 152، مادة "نحر"، حيث يرد فيها : "النحر: الصدر..نحر الصدر أعلاه.. وتناحر القوم على الشيء وانتحروا: تشاحوا عليه فكاد بعضهم ينحر بعضا من شدة حرصهم،وتناحروا في القتال. ونحر النهار أوله... ويقال للسحاب إذا انعق بماء كثير : انتحر انتحارا، وقال الراعي: فمر على منازلها، وألقى بها الأثقال وانتحر انتحارا..ويقال : انتحر الرجل أي نحر نفسه، وفي المثل : سرق السارق فانتحر ".

[2] نفسه،ج 1، ص 184،مادة برجس، وورد في الكتاب نفسه في مادة مرجس : "سعد بن المنتخر البارقي"، ج6، ص35، وهو اسم لشاعر واحد، بدليل ما ورد في تعليقات حرف الباء تحت رقم 57 :"قوله لسعد بن المنتحر كذا بالأصل بالحاء المهملة وفي شرح القاموس بالخاء المعجمة" ج1، ص286.

[3] اطلعنا على مقال أنجزته عصمت عبد اللطيف دندش، تحت عنوان : من مظاهر الحياة الاجتماعية بالأندلس(طقوس الجنائز)، ولم نعثر به على أدنى إشارة تهم منتحرا. مجلة كلية الآداب، الرباط، العدد19، 1994، صص105 – 122.

[4] القاضي عياض وولده، مذاهب الحكام في نوازل الأحكام، تقديم وتحقيق محمد بن شريفة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990

[5] أبو الوليد بن رشد، فتاوى ابن رشد، تقديم وتحقيق المختار بن الطاهر التليلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت،1987،3 أسفار.

[6] أبو الأصبغ عيسى بن سهل الأسدي الجياني، الأحكام الكبرى، دراسة وتحقيق محمد عبد الوهاب خلاف، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة، 1980، في ستة أجزاء.

[7] مالك بن أنس الأصبحي، موطأ الامام مالك، تعليق وتحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، ط2، المكتبة العلمية، د. ت.

[8] أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي الأندلسي، فصول الأحكام وبيان ما مضى عليه العمل عند الفقهاء والحكام، تحقيق محمد أبو الأجفان، الدار العربية للكتاب، تونس، 1985.

[9] أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، تخريج محمد حجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، في 13 جزءا.

[10] راجع ثلاثة نماذج لدى ابن رشد، م.س.، 3:1353، ومما ورد فيها : ".. إلى أن توفي وأورثه ورثته المحيطين بوراثته وهم فلان وفلان". " إلى أن توفي وأحاط بوراثة ما يخلف فلان وفلان ". "إلى أن توفي وأحاط بميراثه فلان وفلان ".

البكري[1] "**لهم في قتالهم شدة وجلد ليس لغيرهم وهم يختارون الموت على الانهزام ولا يحفظ لهم فرار من زحف**".

مثال ثان : عندما استنفر الأمير المرابطي تاشفين بن علي بن يوسف الناس لحرب الإسبان سنة 530هـ /1136م، استدعى زعماء المرابطين والعرب وزناتة والحشم، واستمع إلى رأيهم في الموضوع، وكان جواب زناتة والحشم " **لا جواب إلا الفعل وشرطنا أن تعول أيتامنا** ".[2]

مثال ثالث: لا تدع قراءة رواية مقتل الأمير المرابطي تاشفين بن علي ابن يوسف، قرب وهران، سنة 539هـ (27 رمضان) / 1145م (23 مارس)، مجالا للشك في إمكانية إقدامه على الانتحار، عندما افتقد آخر وسيلة للنجاة بنفسه من حصار الجيش الموحدي. ينقل ابن عذاري[3] في هذا الصدد عن الكاتب الأشيري التلمساني "**لما انحصر تاشفين في الحصن الذي بناه، مع نفر من أعيان لمتونة يئس من الحياة لأنه عاين عزم الموحدين عليه وما جلبوه من الحطب لإشعال النيران من كل جانب إليه، فكان يأخذ ذخائره وأثوابه ويرمي بها في النار بيده وودع أصحابه واقتحم الخروج على النار من بابه والليل قد أرخى سدوله، والجيش قد شمر للقتال ذيوله، فوجد صبيحة تلك الليلة ميتا لم يوجد فيه أثر طعنة ولا ضربة، فقيل إن فرسه صرعه في أحد تلك الأجراف**".

ويمكن حصر قرائن الانتحار، في المثال الثالث، في: الحصار الدافع إلى اليأس ورمي الثياب والذخائر، ثم توديع الأصحاب ثم اقتحام النيران ثم العثور عليه ميتا لا أثر لضربة فيه، هذا فضلا عن التحفظ الذي ختم به الراوي روايته. إن الاقتحام على النار تعد قرينة صريحة نجد لها نظائر كوسيلة للانتحار، يعبر عنها بالتردي من الجبل، التي عرفت في مناسبات عديدة في المغرب وخارجه كما سنعرض لذلك.

إن المتصفح للكتابات المغربية الوسيطية المرتبطة بالحرب والإقدام والبطولة لا يعدم نماذج أخرى، تخلف لديه الانطباع ذاته، ولعله شكل من أشكال الانتحار.

والحال أن ما يمكن أن نسميه ب"أدبيات الانتحار" المتوفرة لدينا تظل قاصرة عن تقديم صورة متكاملة عن لحظات العملية الانتحارية، خاصة الفردية منها. ويمكن تحديد هذه اللحظات في ثلاث:

- لحظة الانتحار، وهي لحظة تطبعها السرية التامة، مما يفتح مجال التأويل ويشكل أحد مصادر ضياع حقيقة الخبر.

- لحظة ما قبل الانتحار، وهي لحظة قد تطول وقد تقصر، وترتبط بنفسية المنتحر وطبيعة علاقاته بمحيطه، الذي قد يتجاوز الأسرة والمعارف والقبيلة إلى السلطة.

- لحظة ما بعد الانتحار، وهي لحظة تبدأ باكتشاف حالة الانتحار وتمييزها عن القتل أو الموت الطبيعي، ولا تنتهي بدفن المنتحر، وإنما تظل مرتبطة بصدى خبر الانتحار وجنازة المنتحر بطقوسها ومراسيمها، وتمتد آثارها إلى أسرته وماله، لتصل إلى تدوين خبر انتحاره وما يطوله من تأخير أو تحريف.

إن غياب معظم عناصر هذه اللحظات الثلاث يجعل البحث في عملية الانتحار مسألة معقدة وشائكة، تعاني من بياضات عريضة، يصعب التعويل على الحدس والاجتهاد من أجل ملئها وتجاوز عوائقها. لذلك كان توجهنا رأسا إلى عمليات انتحار صريحة، كفيلة - في نظرنا – بإعطاء صورة أقرب إلى "الحقيقة".

غير أن السبيل إلى ذلك يمر اقتضاء بل وجوبا عبر إثارة جانب نرى أنه يقدم إضافات إلى العملية الانتحارية، نقصد به المرجعية الدينية في مجتمع مغربي مسلم.

- **الانتحار من منظور ديني – إسلامي :**

دعا القرآن الكريم في مناسبات عديدة إلى حفظ حياة الإنسان باعتبارها حقا من حقوقه، إلى جانب التملك والحرية والمساواة... يقول تعالى: "**ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق**"[4]، ويحذر في مناسبة أخرى: "**ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة** "[5]، وصرح تارة أخرى بتحريم قتل النفس:" **ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما** "[6]. أما الآيات التي ورد فيها الأمر بقتل النفس، فهي ترتبط بظرفية تاريخية معينة، ويؤطرها سياق موضوعي يفرض النظر إليها ضمنه.[7]

وفي إطار تحريم قتل النفس، روى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:"**من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن شرب سما فقتل نفسه فهو يتحساه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا.**"[8] وروى البخاري عن أبي هريرة أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال: "**الذي يخنق نفسه يخنقها في النار،**

---

[1] كتاب المسالك والممالك، تحقيق وتقديم أندريان فان ليوفن وأندري فيري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992، 2 : 860، = =وهو النص الذي أثبته ابن عذاري أيضا في البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1983، 4 : 11.

[2] نفسه، 4 : 94.

[3] قسم الموحدين، تحقيق مجموعة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الدار البيضاء، 1985، ص21.

[4] قرآن كريم، سورة الإسراء، الآية 33.

[5] نفسه، سورة البقرة، الآية 195.

[6] نفسه، سورة النساء الآية 29.

[7] ومثال ذلك قوله تعالى :" فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم "، سورة البقرة، الآية 54، مخاطبا بني إسرائيل، بعد القتال الذي نشب بينهم عقب عودة موسى إليهم. ويرى تركي علي الربيعو في ذلك " أنه عنف يرعاه الإله نفسه، فهو يطلب منهم أن يقتلوا أنفسهم جزاء فعلتهم السابقة " أي عبادتهم العجل، فهو في نظره عنف تبادلي بين الإخوة - الأعداء، يعكس أزمة المجتمع الإسرائيلي في مرحلة التيه. انظر كتابه : العنف والمقدس والجنس في الميثولوجيا الإسلامية، المركز الثقافي العربي، ط.1، بيروت، 1994، صص40-41.

[8] أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت261ه)، صحيح مسلم،ضبط وتصحيح محمد فؤاد عبد الباقي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995،م1، ص 101.

والذي يطعن نفسه يطعن نفسه في النار والذي يقتحم يقتحم في النار".[1]

وهكذا نخلص إلى أن الإسلام حرم الانتحار تحريما مطلقا، وانبنت أحكام الفقهاء المسلمين مشارقة ومغاربة على ذلك. وأنموذج ذلك أن أبا الوليد سليمان الباجي الأندلسي (403-474هـ) افتتح كتابه "فصول الأحكام" بفصل عنونه :"الوعيد على قتل النفس" ابتدأه بحديث نبوي ، ينتهي بعبارة **"وليس بعد الشرك بالله تعالى أعظم من قتل النفس"**[2]. ولعل في الموقف الإسلامي الصارم من قاتل نفسه، ما يفسر عزوف الفقهاء عن الوقوف عند موضوع الانتحار وإحجامهم عن الخوض فيه، واقتصارهم على إثارته كلما دعت الضرورة، وعلى رأس هذه الضرورات الصلاة على قاتل نفسه.

- **الصلاة على قاتل نفسه:**

طرحت مسألة الصلاة على الميت مشكلة في حالات عديدة، مثل الحدود، أي الذي أقيم عليه حد القتل فمات، ثم الذي لم يكن حده القتل فمات من ذلك، ثم في مسائل خلافية مذهبية.[3]

فبالنسبة للحالة الأولى أي للذي أقيم عليه حد القتل فمات، يرى الإمام مالك أنه لا يصلي عليه الإمام، باعتبار أن الحد انتقام والصلاة شفاعة، ولا يمكن الجمع بينهما، وباعتبار أن في ذلك ردع وزجر لمرتكب المعصية.[4] وقد تم الاستناد في ذلك إلى ترك الرسول ﷺ الصلاة على مدين لتضييعه أداء الدين، كما رفض الصلاة على شخص يدعى ماعز بن مالك الأسلمي الذي اعترف على نفسه بالزنا، لكن الرسول أمر الناس بالصلاة عليه.[5] وهذا ما سار عليه فقهاء مثل ابن الحاج وابن رشد عندما امتنعا عن الصلاة على رجل قتل في حد.[6] أما البرزلي فقد خالفهما، محتجا بأن الصلاة شفاعة وأهل الكبائر أحوج إليها.[7]

أما بالنسبة للحالة الثانية أي الذي لم يكن حده القتل فمات من ذلك، فإن على الإمام وسائر الناس الصلاة عليه، من وجهة نظر مالكية[8] وحنبلية[9]. ويدخل ضمن هذه الحالة قاتل نفسه وسائر أهل الكبائر. فقد رأى البرزلي[10] أنه **"لا يصلي عليهم أهل الفضل ردعا لأهل المعاصي"**، غير أنه يجعل لذلك مبررا إذا خيف ترك الناس أجمعين الصلاة عليهم، حينئذ يرى البرزلي أن يصلي عليهم كل الناس. وهو ما قام به عندما أقدم رجل على الانتحار، فقد خاف- ومصدر خوفه عدم حضور الناس جنازته- من ترك الصلاة عليه جملة، فصلى عليه. وقد تمت مؤاخذة البرزلي على موقفه هذا، فكان ذلك مما دعاه إلى تبرير موقفه وتفسيره.[11]

إذن فالخلاف قائم حول صلاة الإمام على قاتل نفسه، ولا خلاف مطلقا على صلاة الناس جملة عليه.[12] فقد اتفق جمهور العلماء على الصلاة على الغال[13] وقاتل نفسه وسائر العصاة. وما كان من ترك الرسول صلى الله عليه وسلم الصلاة على الغال وقاتل نفسه إلا الردع والزجر.[14] ويبدو موقف ابن حزم موقفا متميزا، عندما دعا إلى الصلاة على كل مسلم بر أو فاجر.. **"ويصلي عليهم الإمام وغيره . وكذلك .. على من قتل نفسه .. وإن الفاسق لأحوج إلى دعاء إخوانه المؤمنين من الفاضل المرحوم."**[15]

وباستثناء إشارة البرزلي إلى صلاته على منتحر جيء به إلى المسجد، لا نملك معلومات أخرى عن حالات شبيهة في بلاد المغرب .

3 – بعض حالات الانتحار المغربية الوسيطية :

لم نكن مخيرين في انتقاء نماذج لحالات انتحارية مغربية وسيطية قصد إخضاعها لهذه الدراسة، لمعرفة دواعيها وظروفها وأصدائها، بل إنها الحالات التي قدر لنا جمعها، لذلك فإن ملاحظاتنا وخلاصاتنا تظل مرتبطة بهذه الحالات، كما تظل مؤقتة. ومع ذلك فإننا مقتنعون – رغم محدودية أمد معايشة موضوع الانتحار- أن كل حالة لا تعبر عن ذاتها فقط، وإنما تمثل نوعها، وربما كانت صدى لأفعال فردية أو جماعية أخرى، يصعب القول بخلو المجتمع المغربي الوسيط منها.[16]

وقفنا على ست حالات انتحار تهم مغرب العصر الوسيط، وأضفنا إليها حالة سابعة تهم مغرب القرن 12هـ / 18 م، لكونها تكمل الحالات السابقة، خاصة على المستوى المجالي (المغرب الأقصى)، بالإضافة إلى حالات أخرى لانتحار العامة، من داخل الفترة الوسيطية وخارجها.

---

[1] هناك أحاديث أخرى تصب في اتجاه تحريم قتل النفس، منها :
- عن جندب بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " كان فيمن قبلكم رجل به جرح، فجزع، فأخذ سكينا فحز بها يده فما رقأ(أي فما انقطع) حتى مات قال الله تعالى : بادرني عبدي بنفسه : حرمت عليه الجنة" رواه البخاري، انظر الحديث نفسه بصيغة مختلفة في صحيح مسلم، م س،م1، ج2، ص107.
- "من قتل نفسه بشيء عذب به يوم القيامة "، صحيح مسلم، م س، م1، ج2، ص101. راجع الحديث نفسه لدى أبي نعيم الأصفهاني= =(ت430ه)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي، بيروت، 1405ه، 3: 75، ثم حديثا آخر في المعنى نفسه لدى أبي الحسين عبد الباقي بن قانع (ت351ه)، معجم الصحابة، تحقيق صلاح بن سالم المصراتي، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، 1418هـ، 1:128.

[2] م س، ص117. والحديث رواه البخاري ومسلم.

[3] بلغ عداء المالكية بإفريقية للاعتزال والمعتزلة أن اعتبروهم من مرتكبي الكبيرة، بدليل أن أشهرهم مثل ابن غانم والبهلول ابن راشد وابن فروخ كانوا يرفضون الصلاة في جنازة معتزلي. المالكي، رياض النفوس، 1:121 والدباغ وابن ناجي، معالم الإيمان،1:198، نقلا عن سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1979، 1:369.

[4] ابن رشد، م. س، 3: 1632 – 1633.

[5] نفسه، 3: 1633، الهامش 3. وماعز بن مالك الأسلمي هو المقصود في ما رواه البخاري عن جابر أن رسول الله صلى على زان تم رجمه حتى مات. سيد سابق، فقه السنة، دار الفكر بيروت، 1995، 1:389، وهو تناقض صريح واختلاف بين، يتطلب من ذوي الاختصاص تعميق البحث فيه.

[6] ابن رشد، م.س، 3: 1633.

[7] نفس المصدر والجزء والصفحة،الهامش4.

[8] نفس المصدر والجزء والصفحة والهامش.

[9] يذكر الإمام أحمد بن حنبل عن قاتل نفسه "لا يصلي الامام على من قتل نفسه ولا على من غل " لكنه سمح بالصلاة لسائر المسلمين، انظر أبو الحسين محمد بن أبي يعلى، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق محمود فاخوري ومحمد رواس، ط.2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1979، 1: 165

[10] ابن رشد، م.س، 3: 1633، ه 4.

[11] نفس المصدر والجزء والصفحة والهامش.

[12] لدينا أنموذج عن امتناع الناس عن الصلاة على فقيه ومدرس يعرف بالتقي الأعمى، الذي وجد مشنوقا، سنة 1260ه، في دمشق. انظر ابن العماد الحنبلي، م.س، 3 : 7.

[13] الغال : الذي سرق من الغنيمة قبل قسمتها. وقد روي عن الإمام أحمد أنه قال :"ما نعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم ترك الصلاة على أحد إلا على الغال وقاتل نفسه "، سيد سابق، م.س، 1: 389.

[14] النووي، نقلا عن سيد سابق، مس، 1: 389.

[15] نفسه، 1: 390.

[16] تتعدد حججنا في هذا السبيل، ونأخذ مثالا لذلك استحضار المهدي بن تومرت أحد أشكال الانتحار، وهو بصدد مناقشة الأصل الذي يثبت به الحكم، وقواعده التي حددها في سبعة، إحداها تحمل الفعل، فقد أسقط التكليف عن قاتل نفسه، قائلا " كقتل النفس والتردي من أعلى الجبل "، أعز ما يطلب، تحقيق عبد الغني أبو العزم، مؤسسة الغني للنشر، الرباط، 1997، ص 60. إذ ما كان ابن تومرت ليستحضر طريقة التردي من الجبل، لولا وجودها في بيئته الجبلية.

بعض حالات الانتحار في المغرب والأندلس

ر.ت.	هوية المنتحر	الجنس	المكانة أو الوضعية	الزمان	المجال	الموضع	وسيلة الانتحار	المبرر	المصدر
1	ابنة جرجير	أنثى	بنت حاكم إفريقية	حوالي 28 ه/648 م	إفريقية	مكان عام	إلقاء عن بعير	خوف الاسترقاق	ابن عبد الحكم، فتوح أفريقية والأندلس، صص 38 - 39
2	أبو الحسن بن يزيد	ذكر	ثائر	285 ه / 898 م	صقلية	أمام الأمير	تناول السم	خوف العقاب	ابن عذاري، البيان،، 1: صص: 130 – 131
3	محمد بن الخير المغراوي	ذكر	أمير زناتة	360 ه/971 م	نواحي تلمسان	ساحة المعركة	ذبح بالسيف	خوف الهزيمة	ابن حيان، المقتبس، 38، مفاخر البربر، 132، ابن خلدون، العبر، 6: 182
4	ابنة محمد ابن عباد العبسي	أنثى	ثائرة	619 ه/1222 م	صقلية	حصن	تناول السم	خوف الانتقام	الحميري، الروض المعطار، صص 40 - 41
5	ابن زنون	ذكر	والي مالقة	636 ه/1239 م	مالقة	السجن	الذبح	خوف العقاب	ابن عذاري، البيان، قسم الموحدين، 349
6	مجهول	ذكر	من العامة	ق 9 ه/15 م	إفريقية	-	الذبح	-	البرزلي، جامع مسائل الأحكام، 1: 102 ب (ك)
7	مجهولون	-	من العامة	1603 – 1606 م	المغرب الأقصى	-	إلقاء في البئر	المجاعة	VAJDA, Recueil…. pp. 326 – 327
8	مجهولون	-	من العامة	1603 – 1606 م	المغرب الأقصى	-	الذبح	المجاعة	VAJDA, Recueil…. pp. 326 – 327
9	الطالب صالح المجاطي	ذكر	باشا	1165 ه/1752 م	أكادير	السجن	الذبح	خوف العقاب	الضعيف الرباطي، تاريخ الضعيف، صص 155 – 156

قراءة في بعض حالات الانتحار في المغرب والأندلس

الحالة الأولى:

لعلها أول حالة انتحار تسجلها المصادر في بلاد المغرب في بداية الحكم الإسلامي. ويتعلق الأمر بابنة جرجير، آخر حكام إفريقية قبل الإسلامية، التي آلت إلى أحد الأنصار المشاركين في معركة سبيطلة SUFETULA حوالي سنة 28 هـ / 648 م ، الذي حملها على بعير له وأنشد :

يا ابنة جرجير تمشي عقبتك

إن عليك بالحجاز ربتك لتحملن من قباء قربتكوتضيف الرواية أنها علقت على هذا الكلام العربي الذي لا تفهمه، بقولها: " ما يقول هذا الكلب؟ فأخبرت بذلك فألقت نفسها عن البعير، الذي كانت عليه فاندقت عنقها فماتت"[1].

إن أول انطباع تتركه قصة انتحار ابنة جرجير، أنه عمل درأت به استرقاقها وبالتالي ذلها وهوانها. هذا عن الهدف، أما عن الوسيلة فإننا نتساءل عن إمكانية الموت بالسقوط الإرادي من ظهر الناقة؟

قادنا شكنا هذا إلى روايات أخرى في الموضوع ذاته، فوجدنا غيوما من الشك تلف الحادث، سواء لدى المؤرخين القدماء أو المحدثين. فقد أورد ابن عذاري أن ابنة جرجير آلت إلى عبد الله بن الزبير وليس إلى أنصاري، وأنه- أي ابن الزبير – اتخذها أم ولد، أي تزوجها وأنجب منها.[2] ويبقى العنصر المشترك بين الروايتين هو الاسترقاق.

وفي الوقت الذي رجح فيه سعد زغلول عبد الحميد[3] ومصطفى أبو ضيف[4] رواية انتحار ابنة جرجير، استنادا إلى اختفاء أي أثر لها عقب معركة سبيطلة، إذ لو أنها آلت إلى ابن الزبير أو إلى أحد الأنصار، لحفظت المصادر أخبارها أو أخبار عقبها، مع تعديل بسيط يزيل الشك عن خبر انتحارها، وهو على حد تعبير سعد زغلول،[5] " **لا بأس أن تكون ألقت بنفسها من أعلى سور القلعة – التي حورت إلى ناقة – أسفا على والدها** "؛ في مقابل ذلك نجد حسين مؤنس يشكك في القصة كلها، وينفي جميع عناصرها، ويسميها " **أسطورة ابنة جرجير** "،[6] مؤاخذا على الرواة انسياقهم، حين روجوا لأيلولتها إلى ابن الزبير تأثرا بما ساد الكتابات من شهادات عن زهد عبد الله بن

---

[1] ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1964، صص38-39.

[2] البيان المغرب،، 1: 12 ؛ راجع الرواية ذاتها لدى النويري (أحمد بن عبد الوهاب)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق مصطفى أبو ضيف، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985، ص182.

[3] م.س.، 1: 157- 158.

[4] م.س.، ص 182، ه 14.

[5] م.س.، 1: 158.

[6] حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، د.ت.، ص94.

الزبير وتعففه وورعه.[1] بل إنه يشك في أنه كان لجرجير بنت أصلا،[2] متأثرا في ذلك بشك بعض الدارسين في مقتل جرجير نفسه، مثل TAUXIER.[3]

وهكذا انتهى بنا البحث في قضية انتحار، إلى الشك في وجودها أصلا، لكن ما يهمنا منها هو نص الرواية، مادمنا لا نملك سبيلا إلى نفيها أو تأكيدها، فكما أن لفتح الأندلس قصة Florinda ابنة يوليان،[4] فما المانع أن يكون لفتح أفريقية قصة ابنة جرجير.

الحالة الثانية :

لا تطرح الحالة الثانية مشكلا مثلما طرحته الحالة الأولى؛ فهي تتعلق بتمرد كاسح عرفته صقلية ضد الحكم الأغلبي.[5] فقد انتفضت الجزيرة، عام 285هـ/ 898 م، عربها وبربرها، ضد حكم إبراهيم ابن أحمد بن الأغلب (إبراهيم الثاني: 261- 289هـ/ 874-901 م) المشهور بجوره ودمويته. واستطاع الأمير الأغلبي إخماد هذا التمرد، فأمن أهل صقلية، مستثنيا منهم زعماءهم وهم أبو الحسن ابن يزيد وولداه، فضلا عن زعيم آخر يعرف بالحضرمي، حيث تم إلقاء القبض عليهم، وسيروا إلى أفريقية، وهناك قتل الثلاثة، أما رابعهم وهو أبو الحسن بن يزيد " **فإنه تناول سما فمات من ساعته وصلبت جثته**"[6].

وحسب الرواية فإن انتحار زعيم التمرد الصقلي سبق قتل ولديه والحضرمي، فهو انتحار وراءه الخوف من سوء المصير، من عذاب وتنكيل ؛ فقد قتل الحضرمي بالمقارع بين يدي الأمير الأغلبي.[7]

الحالة الثالثة :

تهم أحد كبراء زعماء زناتة في القرن 4 هـ/ 10 م في بلاد المغرب. وقصة انتحاره كما روتها المصادر التاريخية - ربما اعتمادا على مصدر واحد – وليدة الصراع الفاطمي الأموي في بلاد المغرب واشتداد حدته، وانخراط زناتة وصنهاجة في تشكيل خريطة سياسية قبلية جديدة للمغرب. فقد برز اسم زيري بن مناد الصنهاجي حليفا للمعز لدين الله الفاطمي، واسم محمد بن الخير بن محمد بن خزر[8] حليفا للحكم المستنصر الأموي، اللذين أصبحت المواجهة بينهما حتمية وطبيعية. واتخذت صنهاجة المبادرة فهاجمت زناتة انطلاقا من مدينة أشير، ووقع الصدام في نواحي تلمسان في 15 ربيع الثاني 360هـ/ 15 فبراير 971 م،[9] في معركة حشد لها كل طرف ما استطاع من قوة ورجال وعدة، ومالت الكفة لصالح قائد صنهاجة بلكين بن زيري بن مناد، وأمام أسر رجال عديدين من زناتة، ومقتل حوالي 17 أميرا منهم، وبقاء زعيمهم محمد بن الخير في قلة قليلة من رجاله "**مال إلى ناحية من العسكر وتحامل على سيفه فذبح نفسه**"[10]، جاعلا حدا لحياته ولمواجهة دموية، أسفرت عن نصر صنهاجي، واتساع نفوذ الفاطميين في المغرب.

وهكذا تقدم الروايات التي أشارت إلى انتحار الزعيم المغراوي محمد بن الخير، الذي تم في اليوم الثالث من بداية المعركة أي في 17 ربيع الثاني 360هـ/ 17 فبراير 971 م، باعتباره جنب قومه زناتة الإبادة على يد صنهاجة، فهو عمل بطولي فدى به صاحبه أتباعه، فقد " **أتى بأمر عظيم طار ذكره في أرض المغرب**".[11]

الحالة الرابعة :

تجتمع هذه الحالة مع الحالة السابقة في كون الانتحار جاء بعد استنفاد آخر وسائل المقاومة. ويتعلق الأمر بثورة عرب صقلية ضد النورمان في الربع الأول من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، في بداية حكم الإمبراطور فريدريك الثاني،[12] الذي سعى إلى اجتثاث الوجود العربي من الجزيرة. ولم يحل اتصال عرب صقلية بالموحدين وإعلانهم الطاعة لهم، عوض الخلافة العباسية، دون البطش بهم، وقتل زعيمهم محمد بن عباد العبسي، رغم عقد الصلح بين الطرفين وتعهد الإمبراطور النورماني بعدم إيذائه.[13]

وتقدم رواية محمد بن عبد المنعم الحميري – التي تعد أوفى رواية متوفرة عن ثورة عرب صقلية -[14] ابنة محمد ابن عباد العبسي شخصية قوية عنيدة لا ترضى بالهزيمة والذل والهوان. فقد رفضت الصلح الذي عقده والدها مع النورمان ولم تغادر الجزيرة باتجاه إفريقية، بل اعتصمت بحصن أنطالة،[15] ومن هناك قررت الانتقام

---

[1] نفسه، ص92.

[2] نفسه، ص96.

[3] نفسه، ص 93، نشر TAUXIER مقاله في المجلة الإفريقية Revue Africaine ، سنة 1885.

[4] جرجي أنطونييوس طربيه، الوجدية في الأندلس، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، بيروت، 1983، صص88- 92.

[5] عن انتفاض صقلية هذا يراجع ابن عذاري، م.س.، 1: 130-131 ؛ سعد زغلول عبد الحميد، م.س.، 2: 275 ؛ تقي الدين عارف الدوري، صقلية: علاقاتها بدول البحر المتوسط الإسلامية من الفتح العربي حتى الغزو النورماني، دار الرشيد للنشر، العراق، 1980، صص88-89، الذي يؤرخ له بسنة 284ه/ 897 م.

[6] ابن عذاري، م.س.، 1: 131.

[7] نفس المصدر والجزء والصفحة. والمقارع، جمع مقرعة وهي أداة خشبية تضرب بها الدواب، والمقراع يشبه الفأس وتستخدم لكسر الحجارة. راجع ابن منظور، م. س.، 5: 238، مادة قرع.

[8] ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992، م6،ص182 ؛ انظر أيضا :
Hady Roger IDRIS, La berbérie orientale sous les Zirides, Adrien – Maisonneuve, Paris, 1962, T1, pp. 30-31.

[9] Ibidem، p.31.

[10] ابن خلدون، م.س، 6: 182 ؛ انظر أيضا أبو مروان ابن حيان (377-469)، المقتبس، تحقيق عبد الرحمان علي الحجي، دار الثقافة، بيروت، 1983، ص38 ؛ مجهول، مفاخر البربر، ضمن ثلاثة نصوص عربية عن البربر في الغرب الإسلامي، دراسة وتحقيق محمد يعلى، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي، مدريد، 1996، ص 132؛ ابن عذاري، م.س، 2 : 243.

[11] ابن حيان، م.س.، ص38، وهو ما سجله ابن عذاري أيضا، م.س.، 2 : 243.

[12] عن ظروف هذه الثورة راجع أمين توفيق الطيبي، مقاومة بطولية لفتاة عربية من بني عبس في صقلية (أوائل القرن 7ه م 13م)، ضمن دراسات في تاريخ صقلية الإسلامية، ط.1، دار اقرأ، بنغازي، ليبيا، 1990، صص 167 – 178.

[13] محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت 1975، ص40.

[14] استخرج إ. ليفي- بروفنسال نص الحميري هذا ونشره مترجما في مجلة Oriente Moderno عام 1954، صص383- 388. راجع الحميري، م.س.، ص40، هامش 3.

[15] هو اليوم صخرة إنطالة **Rocca d ’ Entella** الواقعة جنوب غرب مدينة بلرم، وغرب مدينة قرليون **Corleone**، انظر الطيبي، م.س.، ص173

لوالدها، فقامت بشن غارات متوالية، لم تسفر عن نتائج ملموسة، لضعف قوتها وقلة أعداد رجالها واشتداد الحصار عليها، مما دفعها إلى إعمال الحيلة، التي انطلت على الإمبراطور نفسه. فقد أوحت له بتعرضها لضغوط رجالها للاستمرار في المقاومة، وطلبت منه إرسال قوة تتكون من 300 رجل، يدخلون قلعتها ليلا فتنضم إليهم، وتحبط أعمال المقاومة.[1]

واستجاب الإمبراطور لطلبها فأنجدها بثلاثمائة من رجاله. وفي صباح اليوم الموالي قرر استطلاع الخبر، ففوجئ بثلاثمائة رأس معلقة ما بين شرفات القلعة، فأسقط في يده. لكنه فضل مجاراتها، فراسلها من جديد مرغبا إليها الالتحاق به والزواج منه، فكان جوابها "**من الآن فأيئس أن أحصل لك في يد وفي جسدي روح، وأنا مقاتلتك ومكايدتك حتى تفنى ذخائري التي بهذا الحصن ويعجز أهل حمايتي ، فإذا انتهيت إلى هذا الحد فعلت ما سيبلغك** ."[2] وكان جواب الإمبراطور هو بناؤه حصنا مواجها لحصنها زيادة في الضغط عليها "**إلى أن بلغت الحد الذي وعدت به فسمت نفسها**"،[3] وذلك سنة 619هـ / 1222 م .

وهكذا اعتبرت مقاومة ابنة محمد ابن عباد العبسي آخر الأعمال التي قامت في وجه إمبراطور صقلية، الذي نهج بعدها سياسة تقوم على تجويع عرب الجزيرة، عبر إحراق المحاصيل الزراعية، إلى أن انتهى الأمر بترحيلهم إلى لوشيرة أو لوجارة Lucera شمال شرق مدينة نابولي الإيطالية.[4]

الحالة الخامسة:

ترتبط الحالة الانتحارية الخامسة بظروف الأندلس في أواخر عهد الموحدين، مع صعود نجم بني الأحمر الذي قابله ضعف الدولة القائمة، وانشغالها بأمور المغرب من صراع على السلطة ومواجهة القبائل العربية. وفي هذا الإطار وعلى صعيد ترتيب بني الأحمر لشؤون إمارتهم الناشئة، عمد أميرهم أبو عبد الله محمد بن الأحمر إلى تثبيت سلطته في الجهات التابعة له، قبل أن يعلن بيعته للخليفة الموحدي الرشيد، سنة 637 هـ / 1240 م، نيابة عن أهل غرناطة ومالقة ومرسية وغيرها[5].

وهكذا قدم على ابن الأحمر بغرناطة وفد يضم وجوه أهل مالقة لتقديم البيعة له، ويبدو أن والي مالقة ويدعى ابن زنون لم يكن ضمن الوفد، لوضعه الحرج بين إمارة فتية وخلافة متداعية، فكان جزاؤه أن تم القبض عليه، فاقتيد إلى غرناطة، وعذب هناك، ثم أعيد إلى مالقة " **فسجن بها واستصفيت أحواله[6] فذبح نفسه في سجنه** " كما سجل ابن عذاري[7]، مؤرخا بسنة 636 هـ/ 1239 م .

ولم يدم ولاء بني الأحمر للموحدين سوى سنوات معدودات، تتراوح بين ثلاث أو أربع، فقد أعلنوا بعدها تحولهم لصالح الحفصيين في تونس.[8]

إنها محنة وال موحدي على مالقة انتهت بنكبته، وانتحاره في سجنه. لكن ألا يطرح ذبحه نفسه في السجن سؤالا عريضا عن احتمال تدبير قتله من قبل بني الأحمر، حتى يجعلوا حدا لتلكئه في الانتصار لهم؟

الحالة السادسة:

تم إلحاق هذه الحالة بالحالات الخمس السابقة، لكونها توفر للبحث تغطية كاملة للمجال الذي تم اختياره وهو بلاد المغرب، وذلك رغم بعدها زمنيا عنه. كما دفعنا إلى اعتمادها تقاطعها الكبير مع الحالة السابقة عليها، من حيث كونها نكبة رجل إدارة في خضم تحولات سياسية وربما دسائس سياسية أيضا.

يتعلق الأمر بحركة سيدي محمد بن عبد الله - الأمير العلوي وخليفة أبيه على مراكش - إلى منطقة سوس سنة 1165 هـ / 1752م، قصد جعل حد لتطاول باشا أكادير الطالب صالح المجاطي. فقد كلف الأمير عشرة من الفرسان بالقبض عليه ف:" **قبضوه وكتفوه بسرعة وحملوه ..للأمير سيدي محمد فقبضه وأسرع لداره فدخل عليها واحتوى على ما اشتملت عليه من المال والسلاح والعدة .. ثم سجنه، فأمر الطالب صالح المذكور أولاده أن يبعثوا له موسا في وسط خبزة فلما مكنوه منه ذبح روحه في السجن ومات.**"[9]

كم هي بعيدة مالقة عن أكادير جغرافيا، وكم هي طويلة الفترة الزمنية بين 636 هـ و1165هـ، وكم هي مختلفة ظروف أندلس القرن 7هـ/ 13م عن ظروف مغرب القرن 12 هـ / 18 م، غير أن البعد الجغرافي والزمني واختلاف الظروف لم يمنع من رسم صورة، من عناصرها استصفاء الأموال وسجن المعني بالأمر وإقدامه على ذبح نفسه في سجنه. ألا يثير هذا لوحده فينا الشك في صاحب الذبح/ الأمر به ؟[10]

والخلاصة أنها حالات ست، قليلة العدد، لكنها معبرة عن نظيرات لها ممثلة لنوعها، وهو الانتحار أولا، والانتحار المرتبط بالشأن السياسي ثانيا؛ فالحالات الست لا تخرج عن كونها مرتبطة بالسلطة في علاقة ما: هزيمة أو ثورة أو موقف معادي. فماذا عن انتحار العامة؟

لا نملك إلا أن نسجل غياب معلومات بشكل مريب عن انتحار العامة، عدا إشارتين اثنتين:

---

[1] الحميري، م.س.، ص40.

[2] نفسه، ص41.

[3] نفس المصدر والصفحة.

[4] الطيبي، م.س.، ص177.

[5] ابن عذاري، م.س. تم قسم الموحدين، صص356- 357. ويجعل محمد عبد الله عنان تاريخ البيعة سنة 636 ه، انظر كتابه : عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، عصر الموحدين، ط.1، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1964، القسم الثاني، ص510.

[6] الراجح أمواله بدل أحواله.

[7] م.س.، قسم الموحدين، ص 349.

[8] نفسه، ص357 ؛ محمد عبد الله عنان، م.س.، 2 : 510.

[9] محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الضعيف، تحقيق أحمد العماري، الرباط، 1986، صص 155- 156.

[10] تجدر الإشارة إلى تكرر حالات الانتحار ذبحا في السجن في مصادر مشرقي ولنماذج مشرقية أيضا، منها :

عبد الرحيم بن إلياس ابن عم الخليفة الحاكم الفاطمي (مصر القرن 5 ه / 11 م)، انظر بخصوصه محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، ط9، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1413ه، ج17، ص300

- رزق الله بن فضل الله مجد الدين ابن التاج، أحد رجالات مصر المملوكية (القرن 8 ه / 14 م)، انظر عنه أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد عبد المعين خان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الهند، 1972، ج2، ص237.

والأمثلة كثيرة تشق على الحصر.

- وردت الأولى ضمن جدال فقهي حول الصلاة على من قتل في قصاص أو حكم عليه بالقتل، حيث أشار أبو القاسم البرزلي[1] (المتوفى عام 841 هـ/ 1438 م) إلى حادث انتحار بقوله: **"وقد وقع في ذلك رجل ذبح نفسه فأتي به للمسجد فصليت عليه"**.

- أما الإشارة الثانية، فإنها تثير الانتحار وسيلة لتخلص الناس مما كان ينزل بهم من آفات، وما يلم بهم من أزمات، تنعكس على نفسيتهم. ففي مجاعة بداية القرن 17 م (1603- 1606) وما رافقها من وباء وفتن، تتحدث المصادر اليهودية أن الناس كانوا **"يفضلون الموت على الحياة، ومنهم من وضع فعلا حدا لحياته، بأن ألقى بنفسه في بئر، ومنهم من نحر نفسه بسكين"**[2].

إنهما أنموذجان لحالات انتحارية عديدة غابت أو غيبت عنا، ذلك أن فترات الفوضى السياسية والكوارث الطبيعية، شكلت باستمرار مرتعا خصبا للسبي والتعدي والاغتصاب والانتحار؛ ففي مصر الفاطمية، في ظل حكم الخليفة الحاكم، وبالضبط سنة 411 هـ، حين عمت الحرائق والسرقات" **سبيت نساء وبنات كثيرة وفعل معهن الفواحش والمنكرات حتى أن منهن من قتلت نفسها خوفا من العار والفضيحة"**.[3] ولنا في الحصار الموحدي لمدينة مراكش المرابطية أنموذج معبر، يصوره ابن عذاري[4] بقوله: " **فلما طال عليهم الحصار تسعة أشهر وثمانية عشر يوما**[5] **هلكوا جوعا طول هذه المدة وضاقوا حتى أكلوا الجيف وأكل أهل السجن بعضهم بعضا وعدمت الحيوانات كلها وعدمت الحنطة بأسرها** ".

ويمكن أن نلحق بهذه الحالات الانتحارية محاولات الانتحار، أو ما يمكن أن نسميه ب "الانتحار الفاشل"، وقد قدر لنا الوقوف على إشارتين تهمان الأندلس:

- الأولى في القرن 5 هـ / 11 م ترجيحا، وتخص رجلا أندلسيا هام بحب جارية له، غير أن الفاقة اضطرته إلى بيعها لأداء بعض مما بذمته من ديون. لكنه ندم على ذلك ندما شديدا، فعمل جاهدا من أجل استعادتها، لكن صاحبها امتنع ولم يستجب لتوسلاته رغم تدخل الملك نفسه،" **فلما يئس الأندلسي جمع يديه ورجليه وانصب من أعلى العلية إلى الأرض[لكنه] لم يتأذ في ذلك الوقوع كبير أذى"**.[6] وكان ذلك وراء استرجاعه جاريته، في قصة طويلة. ونظير هذا ما أقدمت عليه شاد ملك زوجة خليل بن أميران شاه بن تيمورلنك(تولى الحكم فيما بين 807 – 809 هـ) بعد وفاته مسموما بالري، عندما نحرت" **نفسها بخنجر من قفاها فهلكت من ساعتها ..لمزيد شغف كل واحد منهما بالآخر** ".[7]

- الثانية تهم مشرف أشبيلية الموحدية محمد بن عيسى، الذي نكبه الخليفة أبو يعقوب يوسف ابن عبد المؤمن واستصفى أمواله وحبسه، ونال من ذلك عقابا شديدا " **حتى ضرب نفسه بسكين كان في يده فلم يمت من ذلك**".[8] وإنما مات مما لحقه من عذاب وضرب.

خلاصات :

يصعب تسجيل خلاصات تهم الانتحار في مغرب العصر الوسيط، اعتمادا على حالات معدودات، لأن الأمر يتطلب مسحا مصدريا شاملا، لا تزعم هذه المساهمة قيامها به؛ غير أن ذلك لا يمنع من الاحتفاظ بملاحظات سريعة ومؤقتة :

1 - مبررات الانتحار : ظلت محدودة في الخوف من مصير مأساوي، سواء كان استرقاقا أو هزيمة أو انتقاما أو عقابا أو مجاعة.

2 - وسائل الانتحار : ظلت متراوحة بين الإلقاء بالنفس - عن بعير أو من قلعة أو في بئر- وبين تناول السم أو ذبح بسكين أو بسيف، مع ملاحظة "غلبة " الوسيلة الأخيرة، ربما لفاعليتها وعمق صداها ودلالتها بالنسبة للمجتمع (حضور الدم). والوسائل جميعها لا تخرج عن أشكال قتل النفس، السائدة في المجتمع العربي الإسلامي، عدا غياب وسيلة خنق النفس أي الشنق.

3 - شمولية الانتحار، للذكور والإناث، مع ملاحظة تغييب اسم المنتحرة، رغم قربها من السلطة (ابنة جرجير حاكم إفريقية وابنة محمد ابن عباد العبسي زعيم ثروة عرب صقلية).

4 - اقتصار عمليات الانتحار على حالات فردية، إذ لم نسجل حالات شبه جماعية إلا خارج الفترة الوسيطية (بداية القرن 17)، في حين غابت الحالات الجماعية.

5 - تناثر معلومات وأخبار الانتحار في مصادر مغربية ذات طبيعة حولية- سياسية، وشحها المريب في مصادر التاريخ الاجتماعي، ولذلك دلالته كما أسلفنا.

6 - وقوف تجريم المنتحر حائلا دون ورود أخباره في مصادر مختلفة، أي أن البعد الديني ظل ملازما لموضوع الانتحار، مصداق ذلك وجود شهادات عن منتحرين "كفار" في مجتمعات كافرة"[9].

---

[1] جامع مسائل الأحكام مما نزل بالمفتين والحكام، مسائل الجنائز، 1 : 102 ب (ك)، نقلا عن ابن رشد، م.س.، 3 : 1633، هامش 4.

[2] G. VAJDA, Un recueil de textes historiques judéo-marocains, 1é partie , Hesperis , 3 – 4 è trimestre, T 35,1948, p. 327.

انظر أيضا محمد استيتو، الكوارث الطبيعية في تاريخ مغرب القرن 16، رسالة د. د. ع.، كلية الآداب، ظهر المهراز، فاس، 1988، مرقونة، ص227.

[3] إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، د.ت.، ج 12، ص10.

[4] م.س.، قسم الموحدين، ص27.

[5] أي حوالي 288 يوما.

[6] أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم (ت. 456 ه)، طوق الحمامة في الألفة والألاف، ضبط أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992، ص118.

[7] محمد بن علي الشوكاني (ت. 1250 ه)، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار المعرفة، بيروت، د. ت.، 1 : 244- 245.

[8] ابن عذاري، م.س.، قسم الموحدين، ص 135.

[9] مثال ذلك ما سجله رحالتان عن مجتمعين متباعدين حضاريا :

- مملكة جاوة في القرن 8 ه / 14 م، من خلال وصف ابن بطوطة لمجلس سلطانها، وإقدام رجل على قطع رأسه، وهي عادة يتوارثها الناس إعلانا منهم لمحبتهم للسلطان. انظر ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق علي المنتصر الكتاني، ط4، مؤسسة الرسالة بيروت، 1405 ه، ج2، صص712 – 713.
- جزر الكناري في أواسط القرن 9 ه / 15 م، من خلال وصف Ca Da Mosto لعادة قتل أحدهم تشريفا واحتفالا بتولي الملك الجديد. انظر : Ca Da Mosto , Relation des voyages à la cote occidentale de l'Afrique de Ca Da Mosto, 1455- 1457 , publiés par Ch. Schefer, Leroux, Paris, 1895 , p. 35.